

ما بعد الحداثة من منظور نقدي عند المسيري -نقد المصطلح أنموذجاً-
Postmodernism from a critical perspective of El-Messiri –
Criticism of the term as a model

حبيبة بن زين¹

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة-

Habibabenzine711@gmail.com

تاريخ الوصول 2019/09/03 القبول 2021/01/08 النشر على الخط 2021/10/30

Received 03/09/2019 Accepted 08/01/2021 Published online 30/10/2021

ملخص:

إن النموذج المهيمن على الحضارة الغربية هو النموذج المادي الذي ألغى دور الله ووجوده من العالم، فأثار بذلك الجدل حول مركزية الانسان في الكون: هل هو الإنسان أم المادة؟ وقد حسم الجدل في بادئ الأمر لصالح الإنسان، ولكن سرعان ما انتقلت الحضارة الغربية من الايمان بالإنسان الى الايمان بالمادة؛ فالفلسفة المادية لا تختلف عن أي دين، لها اللغوس² (الكلمة) والغاية (المنفعة واللذة) خاص بها. فهي عبارة عن ديانة عالمية على حسب تعبير ماكس فيبر³. وبموجبها غزا الغرب العالم، ولكن سرعان ما تفكك ذلك المركز الثابت بحكم التغيير المستمر الذي يمس العالم بصورة دائمة، فتعددت المراكز فيه: الاقتصاد (ماركس)، الجنس (فرويد)، المنفعة (بنتام). ومع ظهور نسبية أينشتاين، سادت النظرة النسبية واكتسحت الحضارة الغربية، مما أدى الى انتقالها من العقلانية المادية الى اللاعقلانية، ومن الصلابة الى السيولة، ومن الحداثة الى ما بعد الحداثة.

الكلمات المفتاحية: ما بعد الحداثة - جاك دريدا- التفكيكية- فلسفة اللغة- الانسان-المادة.

Abstract :

The dominant model of Western civilizations the physical model that abolished God's role and existence from the world and thus raised the debate about the Centrality of the Universe. Is it human or matter? The controversy in the beginning of the matter for the benefit of human, but quickly the Western civilizations witched from human faith to the material faith. There is no difference between the philosophy of material and any religion has the Logs (the word) and the objective (Benefit and pleasure)... According to Max Weber It is a universal religion , under which the West invaded the world, but quickly dismantled that fixed position by virtue of the constant change that effects the world permanently, where the centers are the economy (Marx), sex (Freud), Benefit (Bantam) ... With the emergence of Einstein's relativity prevailed the theory of relativism and swept away Western civilization which led to its transition from material rationality to irrationality and from solidity to liquidity and from modernity to postmodernism.

Keywords: Postmodernism - Jacques Derrida - Deconstruction - Philosophy of Language - Man - Matter.

البريد الإلكتروني: Habibabenzine711@gmail.com

¹ - المؤلف المرسل: حبيبة بن زين

² اللغوس: كلمة يونانية تعني الركيزة الأساسية، المطلق، الأساس، الكل، المرجعية النهائية، أي أنه هو المركز والمبدأ الواحد. عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ج. 2، القاهرة، دار الشروق، 2002، ص. 456.

³ يشكل ماكس فيبر أحد أبرز المرجعيات الفكرية النقدية التي يركز عليها ويستند اليها المسيري في دراساته حول الحداثة وفلسفة المادية وتناقضات المجتمع الغربي الحديث، وذلك أن فيبر اشتهر بكونه عالماً سوسيولوجياً أخذ على عاتقه تحليل ظاهرة الحداثة وكيفية نشأتها وتشكلها وكيف سيطرت مقولاتها على المجتمعات الغربية المادية الصناعية؛ وكل مثقف معاصر يريد دراسة الحداثة مضطر للعودة إلى ما كتبه فيبر. عبد الله إدالكوس، في نقد الخطاب الحداثي: عبد الوهاب المسيري ومنهجية نماذج، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط1، 2014، ص. 52-53

مقدمة:

يستهل عبد الوهاب المسيري جل كتاباته بمحاولة إعادة ضبط المصطلحات الغربية، كما فعل مع مصطلح ما بعد الحداثة (post modernism) أو (post modernity)، ويطلق عليه أيضا مصطلح ما بعد البنيوية أو التفكيكية التي اعتبرها أحد أهم الملامح للفلسفة ما بعد الحداثة، وعندما يتحدث المسيري عن "ما بعد الحداثة" فإنه كثيرا ما يذكر "الفيلسوف جاك دريدا"¹ كمثال عن هذا الاتجاه الفلسفي باعتباره المؤسس الأول للفكر ما بعد الحداثي ومنشأ عدة مصطلحات في غاية الجدة لم يسبقه أحد فيها اتسمت أكثر بالفوضوية لتوافق ما جاء به الفكر التفكيكي وبالتالي أرجع المسيري الانطولوجيا الغربية التي تعد أحد منطلقات فكر ما بعد الحداثة إلى أسس الفكر الأفلاطوني المرتكز على مقولات العالم كامل، الثابت، المطلق، الكلي والمتجاوز، في مقابل عالم المثل يواجهه عالم المادة الحاحب له .. ، فهذه الثنائية التي مثلتها المنظومة الافلاطونية تستند الى عالم مادي (الأرضي، الزمني، النسبي) و والى الماورائي الميتافيزيقي المثالي (المتجاوز الكلي، المطلق)، إلا أن المشروع التحديثي العقلاني المادي ينطلق من العقل لا يحتاج الى أي متجاوز للطبيعة والمادة، فهو قادر على الوصول إلى تفسير كلي شامل لهذا العالم، وهذا الطرح المادي الصلب يؤدي الى اثاره عدة تساؤلات عن إمكانية الوصول الى معنى التجاوز والتوصل الى كليات داخل هذا الاطار. وسنوضح هذه المسألة أكثر مع مزيد من الشرح، مجيبين عن جملة تساؤلات من أهمها: ما هي أهم منطلقات فلسفة ما بعد الحداثة؟ وما هي أهم المصطلحات التي ارتكزت عليها؟ وبالتالي ما هي أهم المصطلحات التي أشار إليها دريدا في تأسيسه للفكر التفكيكي الما بعد الحداثي؟ وهل تبقت قيمة ما للإنسان في ظل هذه الانتقالات والتحويلات الما بعدية الراهنة؟ هل يمكن الاحتفاظ بثنائية الانسان والطبيعة في عالم مادي أحادي؟

منطلقات فلسفة ما بعد الحداثة:

يحدد المسيري منطلقات فلسفة ما بعد الحداثة في العناصر الآتية:

1. الانطولوجيا الغربية: وهي المنطلق الأول الذي يستند عليه مشروع ما بعد الحداثة، ألا وهو محاولة القضاء على الخرافة الميتافيزيقية وعلى أوهام الفلسفة الإنسانية (الهيومانية) بشكل كامل والقضاء على خرافة "الحقيقة الكلية" التي تستدعي عالما متماسكا متجاوزا لعالمنا. فمقال المشروع التحديثي "الحداثي" يستند الى ثنائية الذات المتماسكة التي تتفاعل مع موضوع متماسك داخل إطار كلي ثابت مشيرا إلى الأصل المتجاوز (الإله او ظلاله)، "إلا أن النظرة النيتشوية التي يرجع إليها الفضل في تأسيس مشروع ما بعد الحداثة حاولت إزالة هذه الظلال تماما وانكار الأصل جملة والقضاء على الأوهام المتبقية عن الثبات والتجاوز، لتحقيق بذلك العلمنة الكاملة للمجال الفلسفي وتطهره تماما من كل القيم والغايات، وهو ما أعلنته من خلال عبارة موت الإله ثم موت الانسان، فالإيمان السائد في الفكر الحداثي السابق أن العقل والعلم يحلان محل الدين وأن المركزية التي تعطيها الفلسفة

¹ ولد عام 1930م في حي البيار الجزائر العاصمة من عائلة يهودية الاصل ذو جنسية فرنسية ، اسمه الحقيقي جاكى دريدا دخل تحضيرية دار المعلمين العليا في الجزائر فتعلق وأعجب بجون بول سارتر آنذاك وقرر إكمال دراسته في باريس عام 1949م، وبعد "سنوات في فرنسا دخل إلى دار المعلمين العليا بشارع أولم عام 1951م... من أهم مؤلفاته : الصوت والظاهرة ، الجرمانولوجيا ، الكتابة والاختلاف ..ميكائيل بيرنت وهيلويز ليرتبه ، مقال "ماذا تبقى من جاك دريدا" ، تر: محمد ميلاد / مجلة الحياة الثقافية ،س42، ع281/ماي 2017.

الهيومانية مركزية زائفة، فهو كائن طبيعي ليس له أهمية وقد أوضح نيتشه ذلك في كتابه **هذا هو الانسان**¹، إن النظرة السائدة لفكر ما بعد الحداثة تتسم بعدم وجود أي أصل من أي نوع كان وعدم وجود أي ثابت وبالتالي ينظر إلى العالم على أنه في حركة دائمة وصيرورة مستمر، ولكنه ليس بالضرورة تطور ذا معنى وقصد - هذا هو جوهر ميتافيزيقا ما بعد الحداثة - جوهر سلمي له صفات محددة، "فكل مفاهيم ما بعد الحداثة تتصف بهذه الصفات أي غياب المركز والمرجعية والمعيارية ومن ثم غياب أي ثنائية، و إن مجرد استعمال كلمات مثل يقيني، دوافع، ذات، حق، يعد سقوطا في الميتافيزيقا، لان فيها إشارة الى الحقائق الكلية والشائيات المتعارضة؛ ففي هذا العصر أي عصر ما بعد الحداثة، لا تظهر المعيارية وإنما تظهر القوة النيتشوية والتكليف البراغماتي والذاتية المطلقة المغلفة والتسوية الكاملة بين جميع الكائنات؛ فهو عالم غير هرمي لا نظام له، منفتح ومكون من عدة نظم جزئية صغيرة مغلقة يدور كل منها على نفسه ولكل منها معنى مستقل لا يربطها رابط ولا صلة ولا علاقة سببية؛ فلا توجد طبيعة مادية موضوعية ولا حتى بشرية ذاتية، وهو ما أسماه المسيري عالم ذري هلامي، دون أي ثغرات، كما يصفه أيضا بعالم ما بعديات، أي ما بعد التاريخ، ما بعد الإنسانية، ما بعد السببية، ما بعد الميتافيزيقا، ما بعد التفسير... وليتضح المعنى أكثر يمكننا ان نستعيض عن عبارة "ما بعد" (post) بعبارة "نهاية" (end of)، لأن ما بعد الحداثة تعني في الواقع نهاية التاريخ ونهاية الإنسانية"².

وبهذا المعنى تصبح ما بعد الحداثة عدوا للحداثة، أو بالأحرى اخفاقها ونهايتها وإفلاسها. وهنا يطرح المسيري تساؤلات منطقية حول ما سبق: اذا كان المشروع الحضاري للغرب هو الحداثة، فهل يعني أن ما بعد الحداثة هي نهايته ونهاية الغرب؟ وهل يمكن معرفة الواقع؟ وهل توجد حقيقة في عالم ذي طابع انطولوجي راديكالي؟ وموقع الانسان منه؟ عدة تساؤلات يختم بها المسيري هذا المنطلق المتشعب.

2. **المعرفة الغربية**: وهي ثاني المنطلقات وأهمها من خلاله حاول المسيري التوصل إلى أساس هذه المعرفة في ظل تحولات عصر ما بعد الحداثة، حيث يقسم العالم حسب هذا التصور - ما بعد الحداثي - إلى وحدات طبيعية، إنسانية، متساوية، مختلفة... بسبب عدم وجود مركز ولا مرجعية فاتسم بذلك العالم بالتعددية والفوضى وحكم المصادفة والاحتمالية ويصبح الوصول للعالم صعب وحتى ان وصل العقل له فإنه يصعب الإمساك به.. وتستحيل المعرفة الكلية الشاملة فيه لان دعاة ما بعد الحداثة يرفضون فكرة الحقيقة الكلية كونها من مخلفات عصر الاستنارة... ولأن لا وجود لمسمى للحقيقة في هذا العصر في حد قول -دريدا- وإنما يوجد دائما فائض للحقيقة فهي تعددية أيضا... كما ينكر - ميشال فوكو - (الذي يؤمن بميتافيزيقا الصراع) وجود حقيقة فالحق عنده نتيجة للقوة.. "كما يطالبون هؤلاء الدعاة بالقصص الصغرى غير المترابطة والمعارف البراغماتية بدل الحقيقة الكلية والقصص الكبرى (النظريات العظمى)، نلاحظ تكرار هذين المصطلحين (القصة الصغرى والقصة الكبرى) في فكر ما بعد الحداثة، وعد المسيري هذين المصطلحين كمعظم مصطلحات هذا الفكر لا يقولان شيئا جديدا، وإنما هي القضايا القديمة تقدم بطريقة متورمة تخبي أكثر ما تكشف، فاستخدام مصطلح قصة بدل رؤية أو نظرية أو نموذج ليس معاد فقط للمنظومات الدينية وإنما معاد

¹ عبد الوهاب المسيري، رحابة الإنسانية والإيمان، القاهرة، دار الشروق، 2012، ص ص. 102-105.

² عبد الوهاب المسيري، فتحي التريكي، الحداثة وما بعد الحداثة، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 2012، ص ص. 83-85.

للمنظومات الإنسانية الإلحادية أيضا¹... فعلاقة القصة الصغرى بالقصة الكبرى كعلاقة العام بالخاص والفرد بالمجتمع... ودعاة ما بعد الحداثة يرون أن المنظومة الغربية الحديثة منذ عصر الاستنارة تحاول التوصل الى نظرية (قصة عظمى) تجمع كل نظريات (قصص صغرى) وتتجاوزها ووصفهم هذا للفلسفة المادية التي تتبنى رؤية مادية للكون وترتكز عليها (العقل، الروح المطلقة...) هو وصف جيد لتاريخ الفلسفة المادية لأنها تفسر كل شيء وترده الى بناء تحتي واحد "العنصر المادي"، فتسقط في "الواحدية المادية"². فحتى ما بعد الحداثة وصفت بطريقة ضخمت نفسها على أنها فلسفة ضد القصص ذات نزعة متجاوزة متمركزة حول اللوغوس (against logo centric transcendent altotalising metanarratives) أي معادية للقصص الكلية المتجاوزة للصور المادية، بالإضافة إلى أن محاولة تأسيس نظرية عامة على أساس قصة خاصة هو من العبث كما وصفه المسيري: "إذ لا يمكن التعميم من الخاص فإذا كانت النظريات "القصص الكبرى" لا تمكن من الوصول الى الحقيقة مهما كانت والمعرفة أمر غير وارد ولا أساس لكتابة تاريخ عام ولا نظرية للكون ولا حدود حتى للإنسانية المشتركة الشاملة"³... فلا تبقى أمامنا إذا سوى القصص الصغرى والتي لا تتجاوز شرعيتها ذاتها مثل نظام لغوي مغلق تمنح أصحابها يقينا خاصا ولكن لا تجيب عن أية أسئلة كبرى، فالقصة الصغرى - عند المسيري - بمثابة قوميات عضوية والحركة النازية والصهيونية وغوش إيمونيم⁴، كلها تدور في إطار قصص صغرى يستمد منها أصحابها إيمانهم و قدسيتهم ويستبعدون الآخر - فلا توجد قصة عظمى إنسانية يحتكم اليها الجميع - فهي قصة علمانية تنكر أي تجاوز وثبات وتقف خلف دوامة الصيرورة.

حيث أن العلوم الإنسانية داخل هذا الاطار لا جدوى منها ولا تحقق انسانية الإنسان ولا تساعد على التحضر فيطرح المسيري كعادته سؤالاً: ما هو جوهر الانسان وما هو الجوهر أساسا ضمن هذه المعرفة الواحدية الاتجاه والفكر؟

¹ عبد الوهاب المسيري، مقال اليهودية وما بعد الحداثة رؤية معرفية، مجلة اسلامية المعرفة، ص 3، ع 10 / خريف 1997م، ص 111/112.

² هي ذاتها واحدية الكونية التي توحد الانسان بالكون مع استبعاد الله تماما وهذه الرؤية تشكل الاطار المعرفي لكل الأيدولوجيات العلمانية الشاملة الحديثة... عالم الواحدية المادية يستبعد من منظوماته المعرفية والأخلاقية أي عنصر من عناصر التجاوز وينظر للعالم من خلال قانون طبيعي مادي واحد فهي رؤية توحد الانسان والطبيعة وتستبعد المقدسات والغايات (الإلهية والإنسانية) وبذلك تصبح المعرفة مسألة تستند للحواس وحسب فالعالم الطبيعي هو المصدر الوحيد للمنظومات المعرفية والأخلاقية وتصبح الحقائق المادية (الصلبة والسائلة) المتغيرة هي وحدها المرجعية المعرفية والأخلاقية المقبولة... د عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، المجلد الثاني، ط 1/2002م، دار الشروق، القاهرة مصر، ص 467.

³ عبد الوهاب المسيري، حوارات العلمانية والحداثة والعمولة، دار الفكر دمشق، ط 1، 2009، ص 249/250.

⁴ هذه الحركة الدينية السياسية الإسرائيلية "كتلة الإخلاص والثقة" وقد تأسست إثر حرب تشرين الأول عام 1973 وعلى وجه التحديد، في شهر شباط عام 1974. تعتبر هذه الحركة من أهم الحركات اليهودية التي تنادي وتعمل جادة من أجل التهويد من فوق ترى هذه الحركة نفسها بأنها داعية من أجل إعادة تمويد إسرائيل أو بالأحرى أرض إسرائيل. هذه التسمية التوراتية تضيء على اعتقاد هذه الحركة شرعية احتلال الأراضي بناء على عهد خاص بين الخالق وشعبه المختار في تشرين الأول عام 1990 حاولت مجموعة من الغوشيين وضع حجر الأساس للهيكل الثالث وعارض ذلك الفلسطينيون ودفعوا ثمنا باهظا، استشهاد نحو عشرين إنساناً. من الشخصيات البارزة في هذه المنظمة تستمد الحركة بعض أفكارها من القبالة اليهودية وهي بمثابة الصوفية اليهودية. هذا الفكر الصوفي كان شائعا في صفوف اليهود في أوروبا في القرن السادس عشر وأخير نورد ما قاله أحد أبرز المفكرين اليهود في إسرائيل، البروفيسور يشعيا هوليبويتش، 1993-1994، الذي كان حائزا على شهادة الدكتوراة في عدّة مواضيع كالفلسفة والطب والبيولوجيا والبيوكيمياء وتاريخ العلوم. ومما قاله عن غوش إيمونيم عام 1989 ما معناه: "غوش إيمونيم يرفعون اسم الله عبث مثلما رفع هتلر اسم الاشتراكية باسم حزبه"، حسب شحادة، مقال الكتروني، جريدة الحوار المتمدن العدد: 17، 11/2006، بتاريخ 22/10/2006 ساعة 11.39.

وموجبه يقسم المسيري ما بعد الحداثة الى قسمين يجلان محل النموذج الإستناري القديم (والذي يحاول الوصول للحقيقة الكبرى .. والتوصل لنماذج تفسيرية شمولية) وهما :

(أ) ما بعد الحداثة اللغوية: وهنا يربط المسيري "اللغة بالرؤية وطريقة التفكير بشكل عام ، فهو يقر بالعلاقة العضوية بين الفكر واللغة وهو أمر ثابت في القديم والحديث .. فاللغة هي عملية تأطير أفكارنا على نحو يتلاءم مع مقولاتنا الذهنية وهذا ما نقاشه المسيري في كتابه اللغة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود وبين العلاقة القائمة بين الرؤية الكون واللغة في النموذجين الإسلامي والغربي مركزا أكثر على الجانب الغربي الحديث باعتباره النموذج المهيمن على العالم"¹ ، فتتبع المسيري هذا الفكر اللغوي الغربي من خلال تطور الحضارة الغربية التي مرت بثلاث مراحل أساسية تطورت في خلالها عدة جوانب ومن بينها اللغة ،"ويمكن رصدها كالآتي مرحلة التنوير أو النهضة وهنا كان الفكر الغربي متمركز حول اللوغوس أو المطلق وهو الإنسان دون وسائط أو مرجعيات متجاوزة ، مما مكن تمثيل الواقع بلغة عقلانية شفافة تواصلية.. أما المرحلة الثانية مثلها عصر الحداثة حينها بدأ نموذج تمركز حول اللوغوس يهتز و أصبحت للمادة أسبقية على الإنسان مما صعب مهمة اللغة في تحقيق التواصل مع البشر و التفاعل مع الواقع، وهنا نصل للمرحلة الثالثة عصر ما بعد الحداثة حيث أصبحت فكرة العالم بلا مركز بلا ثابت بلا مطلق"².. وبالتالي هذه مرحلة الأخيرة نظرت للغة ليس كأداة لمعرفة الحقيقة وإنما هي أداة لإنتاجها، فما بعد الحداثة اللغوية ترى أن اللغة مكونة من استعارات لا تكشف عن الواقع وإنما تحجبه ،مكونة من لعب الدوال المنفصلة عن المدلولات (مثل الزجاج الذي تحاول الرؤية من ورائه فتتشغل بألوانه) ،ومثل هذا الاتجاه فيلسوف دريدا حيث يبين في كتابه في علم الكتابة "أن مشكلة اللغة ليست مجرد مشكلة فهي مشكلة تحتل الأفق العالمي وتشغل الأبحاث على اختلافها وتشيع في أنواع الخطاب المتنافرة من حيث القصد والمنهج والايديولوجيا، فأصبح كل ما كان يطمح في الانضواء تحت اسم اللغة ينجح في ذلك لكن يستسلم لاجتياحه فيما يسمى الكتابة ، وكأن مفهوم الكتابة يشع في تجاوز حدود اللغة (سواء فهمنا مفهوم الكتابة على أنه اتصال أو علاقة أو تعبير أو دلالة..) حيث أن الكتابة تحوي اللغة لأن كلمة الكتابة قد كفت عن الإشارة إلى الدال على الدال الذي بدوره يصف حركة اللغة وفي هذا الصدد يقوم المدلول بوظيفة الدال الذي شملته الكتابة منذ بداية الدخول في لعبة الاحالات الدالة التي تشكل اللغة ،إن مجيء اللغة يعني مجيء اللعبة الانزلاق المعنى حيث ترتد اللغة اليوم على ذاتها فتمحو الحد الذي يتصور أن بمقدوره تنظيم حركة مرور العلامات انطلاقا منه وتأخذ في غمارها كل المدلولات الباعثة على الاطمئنان وتقلص كل الأماكن الحصينة التي تحرس حقلها خارج نطاق اللعبة وبصراحة هذا يعني تدمير مفهوم "العلامة"³ وكل المنطق المرتبط به وليس من قبيل الصدفة أن يأتي التجاوز في اللحظة التي يححو فيها امتداد مفهوم اللغة كل حدوده"⁴....

¹ بوسحابة رحمة ، فلسفة اللغة عند عبد الوهاب المسيري مدخلا إلى التوحيد الإسلامي ، مجلة المعيار ، ع40 / ديسمبر 2015م، ج1، ص103.

² بوسحابة رحمة ، فلسفة اللغة عند عبد الوهاب المسيري ..، المرجع السابق ، ص 104/105.

³ أنظر إلى : مجموعة مؤلفين : محمد بكاي ، جاك دريدا " فيلسوف الهوامش " ، منشورات الضفاف /بيروت ، منشورات الاختلاف / الجزائر ، ط 2017/1 ، ص ص 113/116.

⁴ (جاك دريدا ، في علم الكتابة ، تر: أنور مغيث ومنى طلبة، المركز القومي للترجمة القاهرة، ط2، 2008، ص ص 67/68.

كما يقول دريدا أيضا: "يستحيل معرفة الواقع خارج نطاق الخطاب والنص ومن ثمة فإن النصوص الفلسفية والعلمية وحتى نصوص البلاغية المجازية مكتفية بذاتها والنص منفتح تماما ومرتبطة بالنصوص الأخرى ولكنه منعزل عن الواقع الموضوعي خارجه"¹.

ب) ما بعد الحداثة الصراعية: نرى أن النموذج هنا الممثل لهذا القسم الإرادة والقوة والحرب... وإذا كانت ما بعد الحداثة اللغوية تقول: لا يوجد شيء خارج النص، فإن ما بعد الحداثة الصراعية تقول: لا يوجد شيء خارج القوة... فالمعرفة لا تفهم إلا في إطار العلاقات القوة وتوزيعها وبتحكم فيها يتحكم في كل شيء، فيصف المسيري "أن القوة لا تهمين فقط على الواقع وإنما تعيد صياغته وإنتاجه وصياغة الناس و المجتمع.. وكما يعرفها على أنها مجموعة من العلاقات تتخلل النظام الاجتماعي بأسره وبأشكال مختلفة، و أن الاعتناق يعد شكلا من أشكالها"²، حيث أنه لا يكمن في العدالة الاجتماعية أو التوزيع العادل للدخل فقط وإنما في تعبير عن الرغبة حيث تحاول النظم الاجتماعية تقييدها ولكن في الحقيقة الرغبة متغلغلة في داخلها لذلك يصبح الشذوذ الجنسي مثلا هو أكثر أشكال الرغبة تعبيرا لهذا الاعتناق حيث صرح ميشال فوكو³ والذي كان شادا يمارس السادية المازوشية "أن لحظة الاعتناق الوحيدة التي كان يشعر بها عند ممارسته الجنس الشاذ على طريقة المازوشية بذلك يزيل كل آثار الميتافيزيقا وظلال الاله فيبقى إلا جهازه العصبي وخلاياه وصيرورته الكاملة في العالم"⁴....

وبتالي فإن اللغة والقوة هما اللوغوس وبدليل مقولة المادة في الفلسفات المادية في عالم لا قوانين فيه ولا مرجعية له ولا يتبع أي مخطط أو تحرك ديناميكي...

3. المعنى والتجاوز (الوحدة والتماسك): ووصل المسيري إلى المنطلق الثالث وصف إياه " بأنه هو الذي حاولت فلسفة ما بعد الحداثة عن طريقه إيجاد حل لمشكلة غياب الهدف والغاية والمعنى بقبول التبعر بأعتباره أمرا نهائيا طبيعيا ، وقبلت بالتغيير الكامل والدائم ، إذ لا تحقيق للوحدة و المركز ولبدله ومقابله تظهر عدة مراكز وينشأ مفهوم الذات الحرة تماما داخل سياقها الخاص وحدودها الضيقة و يصبح العالم الخارجي تحت رحمة الحتميات وصدفة العمياء... فيغدو علمنا عالما فوضويا لا نظام ولا مركز ثابت له ، والارادة المطلقة داخل سياقها الفردي إرادة عاجزة داخل سياقها الإنساني العام... فيتصور البعض أن ما بعد الحداثة "إيديولوجيا ثورية تعددية"، ولكن ما لا يدركه هؤلاء أنها مجرد دعوة للتسوية لا للمساواة وأنها إنكار للمعيارية بتعددتها هذه

¹ المصدر نفسه ، ص 69.

² عبد الوهاب المسيري و فتحي التركي ، الحداثة و ما بعد الحداثة ...، المصدر السابق ، ص 90.

³ حاول فوكو اقتضاء هويته من خلال اقتضاء النظري للذات التي اعتبارها منتوجا وليس منتجة لأنها عبارة عن تركيبة غامضة للأحداث والمواقف والمواقع المتفاعلة ، ولكنه يعود بشكل غامض للتقليد الفلسفي الديكارتي الذي يميز بين الذات المفكرة والجسد الصامت وبينهما سد منبع حيث لا علاقة لطرف بعمل طرف الآخر ، فجسد فوكو كان شادا ولكنه غير مهم ولا اعتبار له بالنسبة للذات المفكرة... ان محاولة تفسير أعمال فوكو بشذوذه الجنسي وعشقه لتجارب المحون على الطريقة الغربية فعلينا على الأقل أن نحصر مجال تأثير هذا البعد فقط في الكتابات التي حاول فوكو أن يرى فيها ذاته المنفية...، مصطفى اعراب ، "فوكو الشذوذ الجنسي وتجربة الاختراق" ، مقال الكتروني ، يوم 2017/12/23 على سا 17.56.

⁴ المسيري و فتحي التركي ، الحداثة وما بعد الحداثة ..، المصدر السابق ، ص 91.

ومع رفضها لفكرة الإله المتجاوز لفكرة القداسة تعادي الإنسان ومركزته وطبيعته البشرية في مضمونها فهي إيديولوجيا براغماتية تلعب بالواقع بدل تغيير منه ولا يصح الحديث عن معنى اللعب بل اللعب بالمعنى¹.

في تصور المسيري- من خلال كتابه سبق ذكره "اللغة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود"- أن للانفصال الدال عن المدلول والوقوع في لعبة معاني وتجاوزها وانلاقات الدوال عن المدلولات في الحضارة الغربية له جملة من الأسباب ملخصة في النقاط نذكرها كما يلي: (أ) تقويض الذات و الموضوع من خلال الرؤى الفلسفية والفيزيائية والبيولوجية ، التي سطعت في أواخر القرن الـ19 وفي بدايات القرن الـ20 وهذه العملية تعني صعوبة وجود علاقة بين الذات المدركة والموضوع المدرك وصعوبة الوجود علاقة بين الدال اللغوي والمدلول الذي هو جزء من الواقع أيضا .

(ب) تصاعد معدلات الترشيد الاجرائي في المجتمعات الغربية وتوظيف أي وسائل في تحقيق اية غايات أي أنه ترشيد يتجه الى الإجراءات دون الاهتمام بالغايات فمثلا في الاقتصاد الحر في السوق أصبحت القضية في كيفية تحقيق اعلى المعدلات الربح بغض النظر على النوعية المنتج (أسلحة ، أفلام اباحية ، طعام) أي ان الاقتصاد انفصل عن الانسان ، واصبح هدفه الا ذاته ، وحدث نفس الشيء في المجالات الأخرى المختلفة للنشاط الإنساني (سياسة ، فلسفة ، جنس ...) انفصال تام عن الواقع الإنساني المركب.

(ت) تزايد معدلات انفصال العلم الطبيعي عن القيمة والتجريب عن العقل ، واصبح التجريب منفصل عن اية قيم إنسانية أو أخلاقية مع تزايد معدلات الاستهلاك إلى أن تحول الى غاية في ذاته فبالتالي الاستهلاك من اجل الإنتاج والإنتاج من اجل الاستهلاك لا غير ذلك ... وهذا ما أدى بطبيعة الحال الى انفصال الحقائق عن القيمة و الأجزاء عن الكل ... ووصولاً الى انفصال الذات الإنسانية عن الموضوع .

(ث) ومع تزايد معدلات الترشيد المادي الاجرائي تزايد أيضا نقل الظواهر الإنسانية الى عالم الأشياء حتى اصبح الانسان هو الانسان الشيء أو الانسان المادي الجزء الذي لا يتجزأ من الطبيعة خاضع لقوانينها وحميتها ... ففقد حريته وقدرته على التجاوز و غدا دالا دونما مدلولاً ..

(ج) يعد مفهوم التقدم المستمر الى ما لا نهاية في الحضارة الغربية مدلولاً متجاوزاً يتوقف عنده لعب الدوال وتراقصها ، وهذا التقدم ليس له أي هدف انساني محدد فهو مجرد حركة دائمة نحو شيء ما ، فالتقدم دال بلا مدلول ...

(ح) إن أزمة المعنى في جوهرها هي اكتشاف الانسان الغربي أن حياته دال بلا مدلول ، حركة بلا معنى ويصل هذا الاتجاه الى ذروته مع الترشيد الاجرائي والاخلاقيات الصيرورة أي التزام بقواعد اللعبة دون الاتفاق على هدف معين منها ، والالتزام بدال دون مدلول وحركة دون غاية ...

(خ) أهم الصناعات الحديثة الأكثر إنتاجية هي صناعة الأسلحة أي "أهم أشكال الإنتاج في العالم إنتاج الدمار" عبارة لا دلالة لها في المنظور الإنساني ... ورغم انهيار الاتحاد السوفياتي و انتهاء أسباب الحرب و ما دعا للسخرية أن الدول التي تصنع السلاح

¹(عبد الوهاب المسيري ،فتحى التركي ،الحداثة وما بعد الحداثة... المصدر السابق ،ص93.

لا زالت مستمرة في الإنتاج وتصدر الى دول العالم الثالث ثم تتسارع الأمم الكبرى الرشيدة "الصناعة للسلاح" للتدخل لفض الاشتباك بين الدول غير الرشيدة " التي اشترت منها السلاح " ؟

(د) حتى اللغة في المجتمع الصناعي الحديث لم تسلم من الترشيد والتحييد فأصبحت لغة واحدة ، مجرد أداة للتعبير عن أنفسهم في اطار عمليات البيع والشراء والتعاقد القانوني والاوامر و استعمال البيروقراطي ، لغة الدقة والعقل الأداة المحول العالم لمادة استعمالية في القمع و التشيؤ والتسلع... لغة الاعلام العالمي تقول كل شيء ولا تقول شيئا ..

(ذ) مع ظهور الفلسفات الوضعية الضيقة التي بدور تأييد فكرة أن اللغة لا بد أن تكون محايدة ولا تحمل أي مضمون أخلاقي ولا عاطفي... برغم انها حاولت تضيق ثغرة بين الدال والمدلول فتصبح العلاقة بينهما علاقة بسيطة بحيث يشير الدال إلى مدلول محدد... وفي مقابل هذا الاتجاه يظهر ترمد على هذه اللغة الغارقة في الموضوعية والتحييد الى دعاة اللغة الذاتية والتي أصبحت اللغة المقبولة الوحيدة في عالم الفن خاصة المعبرة عن العالم المبدع الجواني فهي مرجعية ذاتها لذلك اصبح الفن الحدائي أكثر ابهاما و تعقيدا وغموضا و نجوبيا... ففي علم اللغة "اللغة مرجعية ذاتها لا مضمون لها ولا معنى وهذا ما يعبر عنه الان انفصال الدال عن المدلول واللغة تسبق الواقع"¹.

4. المنظومة الأخلاقية :

يعد هذا المنطلق تحصيل حاصل لما سبقه من منطلقات ، "فالأخلاق والقيم معايير ثابتة لا قاعدة لها في الفكر ما بعد الحدائي الذي لا وجود لثبات الكون فيه والواقع لا اتجاه له عنده و بما أن الحقائق منفصلة عن قيمة بالتالي لا يمكن قيام أية معيارية ولا أسس أخلاقية عامة... فكل ما يمكن التوصل إليه إلا أخلاقيات براغماتية تأخذ شكل فلسفة القوة ،الهيمنة في مقابلها فلسفة الإذعان والتكليف.. إذ لا توجد معايير متجاوزة للإنسان"²...

5. التاريخ والتقدم:

ويختتم المسيري هذه القائمة بالتاريخ الذي "يعد ذاكرة الشعوب والمسجل لكل ماضيها و المرشد لحاضرها ومستقبلها ، إلا أن هذا الإحساس العميق بالتاريخ في فلسفة ما بعد الحداثة إحساس يختفي باستمرار ، كما تختفي النماذج الخطية التطورية والنموذج التفسيري... وتظهر ذاكرة الكلمات المتقطعة والمعلومات المبعثرة وينشأ في المقابل إحساس بالحاضر الأزلي المتغير المستمر لا ماض ولا مستقبل ويصبح التاريخ مجرد زمن اللحظات الجامدة لا عمق لها ولا معنى"³... ويتساوى الحاضر والماضي والمستقبل كما تتساوى الذات بالموضوع والانسان بالأشياء...

وبعد عرض المسيري لهذه القائمة الطويلة من المنطلقات الأساسية التي تركز عليها فلسفة ما بعد الحداثة ، "حاول تسليط الضوء على أهم مصطلحاتها ومعاجمها لكثرة تردد هذه المصطلحات المعاكسة"⁴ إن صح التعبير لمصطلحات فلسفة الحداثة والتنوير وعليه

¹ عبد الوهاب المسيري ،اللغة والمجاز "بين التوحيد والوحدة الوجود"، دار الشروق /مصر ، ط1/2002، ط2/2006 ، ص ص 146/140.

² عبد الوهاب المسيري وفتحي التركي ، الحداثة وما بعد الحداثة...،المصدر السابق،ص94.

³ عبد الوهاب المسيري وفتحي التركي ، الحداثة وما بعد الحداثة ، المصدر السابق،ص94/95.

⁴ بخصوص المقارنة لمصطلحات ومسميات لكل من فلسفة الحداثة وما بعد الحداثة أنظر إلى : بيتر بروكر ، الحداثة وما بعد الحداثة ، تر: عبد الوهاب غلوب ، منشورات الجمع الثقافي ، ط1 ، 1995، ص ص 30/28.

كان دائما ما يوجه النقد لنموذج الفكر ما بعد الحداثي "المفكر جاك دريدا" والذي يعد صانع أهم مصطلحات هذا العصر " ما بعد الحداثي " في الفكر الغربي وعليه استعرض المسيري معجمه ومصطلحاته المتكررة ...

مصطلحات ما بعد الحداثة (جاك دريدا أنموذجا) :

يعد جاك دريدا مثالا على أهم صناع المصطلحات ما بعد الحداثة كما ذكرنا آنفا، لذلك حاول المسيري استعراض معجمه وتفصيله فقسمه إلى قسمين: مصطلحات الثبات (الصلابة)، ومصطلحات التغيير (السيولة) مع أن دريدا أنكر أي وجود للشئيات في خطابه وزعمه أنه تجاوزها ...

ومن أهم مصطلحاته "الحضور" (présence) وهو مصطلح مرادف لكلمات أخرى في الفلسفة الغربية مثل اللغوس "عالم المثل"، الكليات الثابتة المتجاوزة وبعض المترادفات الأخرى الجوهر، الحقيقة، الوجود، "ويعتبر معنى الحضور من المفاهيم الهوسرلية التي بحث فيها دريدا وهي من أولى أعماله وانتقاده له في هذا الموضوع فيبين دريدا رده في ثلاث مسائل رئيسية: فالمسألة الأولى تمثلت في مسألة الكتابة بالنسبة للكلام، والرسم بالنسبة للصوت حيث يرى هوسرل أن اللغة تفضي مباشرة للمعنى بينما دريدا اعتبر أن صوت أكثر شفافية وفورية للفكر وبالتالي للمعنى.. أما المسألة الثانية العلاقة بين العلامة و المعنى بين هوسرل استناد التفكير في العلامة إلى تفكير حول الكينونة أما دريدا لا توجد بالنسبة له علاقة تبعية بين العلامات من جهة والأشياء والحضور من جهة، فيبين أن الكلمات لا تحيل على مقولات ذهنية مثلا عندما نقرأ كلمة ماء لا تحضر في ذهن صورة الماء الثابتة وإنما تحيل على كلمات أخرى مثل قطرات انهار.. ومسألة الثالثة تمثلت في مسار المعنى فدريدا لم تعد مشكلة عنده تتعلق بعشية العالم أو عدمه وإنما في سبب إفلات المعنى منا دواما، فأجاب عن هذه المسألة من خلال بحثه في العلاقة بين الاختلاف والإرجاء¹ وبالتالي أحلنا على مصطلح آخر وهذا سنطرق له فيما بعد... كما عرفه بأنه الأساس الصلب الثابت لأي نسق فلسفي فالحضور مقولة أولية قبلية توجد في البدء قبل تفاعل الذات مع الموضوع، هو مكثف بذاته لا يستند وجوده إلا لنفسه وهو الأصل الذي يستند إليه كل شيء ومصدر الوحدة والتناسق... لذا دعاء ما بعد الحداثة يرفضون مصطلح الحضور لأنه ملوث بالميتافيزيقا ..

ومن مصطلحات الثبات أيضا عنده "التمركز حول اللوغوس" (logo-centricity) "يرى دريدا أن الفكر الغربي فكر متمركز حول اللوغوس الذي يعد الأصل وكل شيء يستند إليه... وانساق المتمركزة حول اللوغوس تدعي لنفسها العالمية والشمول، ولكن أنصار ما بعد الحداثة يرون أن الفكر الإنساني (ربانيا كان أم إلحاديا) الذي يتمركز حول اللوغوس فكر ميتافيزيقي لا يتعامل مع الصيرورة الحسية المباشرة ولذلك هاجم أنصار ما بعد الحداثة التمرکز حول اللوغوس بطرح عدة مفاهيم أخرى كالتناسق و التمرکز حول المنطوق، و النص المفتوح² وهو ماذهب إليه دريدا في طرحه إلى أنه لا يوجد فكر إنساني من دون أساس ثابت (دون لوغوس) وأن الفكر المتمركز حوله فهو ملوث بالميتافيزيقا، وبالتالي توجه إلى التمرکز حول المنطوق (phono-centricity) "أي أن المنطوق له أولوية وأسبقية على المكتوب وأن اللغة المنطوقة في مرتبة أعلى من المكتوبة فالكلام المنطوق يفترض أن فحوى

¹ ميخائيل بيرنت وهيلوز ليرتبه، ماذا تبقى من جاك دريدا؟، المرجع السابق، ص 147.

² عبد الوهاب المسيري، اليهودية وما بعد الحداثة..، المصدر السابق، ص 110. انظر ايضا محمد علي الكردي، جاك دريدا وفلسفة التفكيك، مجلة إبداع، ص 18 فبراير /مارس 2000، ع 312، ص 23/22.

الكلمات موجودة بشكل مباشر في وعي الناطق ، وهذا يعني أن المعنى أسبق على الكلام ومنفصل عن النظام الدلالي وأن اللغة ماهي إلا أداة ، فالمنطوق يشير إلى الأصل "الحضور واللوغوس" بشكل مباشر وهو أقرب إليه وأكثر شفافية ، فالنص المكتوب والتعبير غير المباشر يصل إلى المتلقي عن طريق القلم والمطبعة والأوراق ، فإذا لم يفهم المتلقي ما جاء فيه ولا يمكن الاستفسار عن معناه من الكاتب فالنص هنا منفصل عن كاتبه ، أما المنطوق عند دريدا هو التعبير عن التمرکز حول اللغوس ورغبة الوصول إلى الحضور والمدلول والمتجاوز"¹.

وينتقل المسيري من عرض مصطلحات الصلابة إلى ذكر أهم مصطلحات السيولة عند دريدا **(la différence)** التي تفيدها معنيين الاختلاف و الإرجاء ... "فالمعنى بالنسبة لدريدا ينشأ من اختلاف الدال عن الآخر فكل دال متميز عن الدوال الأخرى ولكن ثمة ترابط بين الدال والآخر (ليس بين الدال والمدلول) فكل دال يتحدد معناه داخل شبكة من العلاقات مع الدوال الأخرى فالدال مرتبط بالمعنى الدال الذي قبله والذي بعده ووجوده نفسه يستند للاختلاف ، فحزب التفكيكيون مثالا عن ذلك بالبحث عن كلمة "قطة" في القاموس فسيحدد معناها من خلال اختلافها مع كلمتي "نطة" و "بطة" كما يحلينا القاموس الى أن قطة حيوان وأنه كائن ذو أربعة أرجل مما يحلينا إلى كلمة كائن ... فعملية الإحالة عملية دائرية لا تنتهي أي أن دائرة هرمونوطيقا دائرة مفرغة لا تؤدي إلى نهاية فكل تفسير يؤدي إلى تفسير آخر وهو ما يؤدي إلى انفصال الدال عن المدلول والسقوط في شبكة الاختلاف والاحالة ومن ثمة الوصول إلى معنى وحقيقة ، فالاختلاف هو القوة الكامنة في اللغة والدافعة لها ، فبين دريدا أن معنى الكلمة ليس كامنا فيها وإنما يتحدد بالاختلاف أي كل مدلول كلمة يتحدد من خلال غياب المدلولات الأخرى ... فحضور الدال وارتباطه بمدلوله هو غياب الدوال والمدلولات الأخرى وكل دال يحتوي على الأثر (الذي يشير إلى انمحاء الشيء وبقائه محفوظا في الباقي من علاماته هكذا يكون الأثر قناة للارتباط بسابق النصوص والعلامات وللتيه في علامات أخرى لاحقة في نشاط معمم للغرس والبعثرة والتوليف الطبقي)"² ، من الدوال الأخرى التي يختلف عنها ... معنى الدال غائب عنه دائما وليس له حضور كامل بتاتا فهو جزء من شبكة العلاقات الدلالية وعن طريق الاختلاف يحدث تراكم للأثار تلو الأخرى ... فيبدو المعنى ثابت ولكنه مجرد وهم متمثل في "الأثر" وهذا المصطلح من أهم مصطلحات السيولة عند دريدا.

ويؤكد المسيري أن اللغة حسب دريدا ليست ظاهرة تماما وإنما كل كلمة تحوي أثرا من الكلمات السابقة وتترك أثرا أيضا في الكلمات اللاحقة لذلك يفيض المعنى عن إرادة الكاتب وحدود النص ، فيحل بذلك الأثر محل الأصل فهو الأصل بلا أصل فيجد الانسان نفسه بلا أصل رباني أو مادي فيبقى أمامه إلا صيرورة النسبية المطلقة .

وحسبما يوضح المسيري أن الاختلاف أو كما أطلق عليه (الإختلاف) والتراكم أمر يؤدي إلى "تناثر المعنى" كما اطلق عليه دريدا (dissémination) وهو من فعل (disseminate) بمعنى نثر الحبوب أو البذر (semen) فالمعنى المقصود من هذا المصطلح "نثر المعنى" أي أن للكلمة عدة مستويات :

أ) معنى النص مبعثر فيه كبذور تنتشر في كل الاتجاهات ومن ثمة لا يمكن الإمساك به فيتشتت المعنى ...

¹ عبد الوهاب المسيري ، العلمانية والحداثة والعودة ، المصدر السابق ، ص ص 244/245.

² جاك دريدا ، الكتابة والاختلاف ، تر كاظم جهاد ، دار توبقال المغرب ، ط2 / 2002 ، ص 29.

(ب) تأخذ الكلمة المعنى كأن لها دلالة دون أن تكون ذلك أي يحدث أثر الدلالة وحسب بها...
 (ت) نفي المعنى فيطرح دريدا "مصطلحا ومفهوماً آخر أبوريا (aporia) أي الهوة التي لا قرار لها وهي عكس الحضور الكامل أو بالأحرى ، كما يبين المسيري تجاوز ثنائية الحضور والغياب فإذا كان الحضور هو الثبات والتجاوز والعلاقة بين الدال والمدلول فالهوة هي الصيرورة الكاملة ودليل على أن الواقع متغير بشكل دائم...، فهي دليل على أن اللغة قوة لا يمكن التحكم فيها وهي أحد أسماء المطلق النسبي في الخطاب التفكيكي حيث وصفها دريدا -بالمحدد غير المحدد- وأبوريا مرتبطة بفقدان الحرية والمسؤولية والهوية وتشير إلى عالم لا يوجد فيه أي ثابت ولا أي توق للثبات ولا العودة للميتافيزيقا ولا المركز اللوغوس فهي بقاء الصيرورة في عالم اللاإشارات بلا أصل (عالم غارق في الصيرورة المادية السائلة) كما اطلق عليها المسيري لعبة المصادفة المطلقة حيث تحيل الانسان إلى اللامحدود ولا تصبح الهوة النقطة التي تنفصل فيها سلسلة الدلالات عن المدلولات وتنزلق الدوال ويبدأ الاختلاف ويتراكم الأثر وتناثر المعاني"¹.

وكما يقول فوكو : "فإن الأنثروبولوجيا كانت هي المثال للأنسنة المصدرة من هذا المشروع (الحداثة) نحو الآخر (ما بعد الحداثة)، المرسل من المركز والمركبة إلى المحيط (الهامش) هنا يلعب الاختلاف دورا معياريا وليس معرفيا فحسب حيث إن الخطاب المركز الموجه نحو الهامش هو المركز، والآخر هو الهامش فالانطلاق من مجرد تعيين هندسة الشكل أو العلاقة بين الذات والآخر تضع حدا لقيام أي حوار بينهما فالمركز الذي حدد موقعه و فرض على الآخر ان يكون بلا مركز ، وما التعيين خارج المركز الا تورط في المساحة اللامتعينة... فالمتعين المنفرد هو المركز وبالتالي يغدو متعينا بلا حدود مقابل لا حدود المحيد الذي حوله متمثل في الهامش"²...، وعليه فالاختلاف (difference) (تشتيت /إرجاء) احدى الأفكار الأكثر تعارضا مع الفكر النيتشوي في اطار المشروع ما بعد الحداثة والتي فحوها ان النصوص تمتلك طاقة لإرجاء المعنى الذي عودتنا الكلاسيكية على كونه مغلقا نهائيا، فالطاقات تجعل القراء يمتلكون حق الاختلاف في تأويل المعنى وارجائه في اطار "لعبة" انزلاق المدلولات على أرضية المداليل، هكذا يعوض الائتلاف الديسوسري الواقف خلف مشروع النيتشوي بالاختلاف الدردي المرسى لمشروع ما بعد النيتشوية.. "ويعيدنا هذا المفهوم الى الفكر النيتشوي لأن نيتشه"³ وقف ضد التفكير الثنائي الارسطي الذي استمر حتى الجدلية الهغلية ، فالثنائيات التي تنظم كل القيم وكل الأفكار تقصي ذلك ما شذا عن طريقها من المتجادلين أو المتقابلين وهذا مدار حوله كتاب نيتشه والفلسفة

¹ د.عبد الوهاب المسيري، العلمانية والحداثة...،المصدر السابق، ص ص 248/246.

² ميشيل فوكو ، الكلمات والأشياء "أنطولوجيا العلوم الإنسانية"، ترجمة مطاع صفدي و بدر الدين عردوكي وآخرون ، مركز الانماء القومي لبنان، ط2 ، 2013، ص ص 9/8.

³ كشف لنا نيتشه في اول كتابه أفول الاصنام "كيف أصبح عالم الحقيقة نهاية الحكاية" وكيف اختفى العالم الميتافيزيقي ، الافلاطوني ، المسيحي ، و المثالي الذي كان مرجع عالم الظواهر فماذا يتبقى بعد هذا الاختفاء لهذا العالم؟ أهو عالم الظواهر؟ كلا وإن عندما قضينا على عالم الحقيقة محونا عالم -الظواهر ومن هنا انخيار ازدواجية ذاتها للتقابل بين الحقيقة والظاهر وبين الواقع والخيال ليصبح الخيال واقعا وعالم الحقيقة حكاية.... نيتشه، جذور ما بعد الحداثة، تحرير د أحمد عبد الحليم عطية، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2010، ص 164.

__أنظر أيضا: د مصطفى غالب ، في سبيل موسوعة فلسفية، نيتشه، دار مكتبة هلال ، دط، 1988.

لجيل دولوز سنة 1962 قائلا: "إن قيمة الاختلاف قيمة مستقلة عن الذات والموضوع، قيمة رئيسية أصلية غير قابلة للاختزال فالتعدد ناموس من نواميس الكون والاختلاف الوجه الآخر للتعدد فهو قيمة بانية للخلق، للطبيعة وللمعنى"¹.

فيتحول الاختلاف لدى دريدا الى قيمة معرية للزمن، لكي تصير القيم لأثر على خط الزمن وتضيق التقنيات وتؤجل الزمن لم يأتي بعد وبهذا الشكل يصير الاختلاف قيمة حتمية متحركة مزلزلة لبنيان البنيوية فتفقد سبب وجوده فيقول دريدا: "ربما على الفلسفة أن تخل في اعتبارها هذا الغموض والتداخل، وان تفكر فيه من خلاله وعليها أن تستقبل التعددية والاختلاف في أفق التوقعات الذي هو أفق جوهرى في الفلسفة"².. فيحيلنا هذا المصطلح إلى ما يرادفه **التفكيك** "الذي يعد إستراتيجية جديدة مخالفة للتي اعتمدها البنيوية قصد فهم العلاقات داخل المنظومة والعمل على تنظيم عناصرها بطريقة عقلانية حيث يعلن التفكيك عن التحليل البناء وإرجاعه إلى العناصر المكونة له وهذه العملية انتهجها الفلاسفة التحليليين أمثال مور راسيل و فتحنشين الذين حاولوا تحليل الواقع من خلال القضايا و الأحكام التي يصدرها الإنسان حوله، إلا أن دريدا يختلف عن هؤلاء من حيث منهجية نجد تحليله وتفكيكه من خاص يشبه الماهية التي يبحث عنها هوسرل من خلال منهجه الفيومولوجي.. إلا أن إستراتيجية دريدا تمثلت في عملية الحفر والبحث ولا احد قبل هذا فيلسوف تمكن من القيام بهذا، فحتى نيتشه و سارتر وهيدجر الذين رفضوا سلطة العقل نجدهم يقعون في متاهتها"³، فرنين هذه المفردة يوحي لنا بإزاء تضائل العالم ونهايته، ولكن كما رأينا أن دريدا لا يؤمن بالعدمية ففضل استعمال مفردة التقويض (destruction) بدل مفردة الهدم (démolition) التي تستنبط من دلالتها عدمية ما... فالتفكيك (déconstruction) التي تكرر استعمالها في كتابه "الكتابة والاختلاف"⁴ وكما استعمالها في كتابه "علم الكتابة" ووصفها قال: "يظل مفهوم وعمل وأسلوب التفكيك عرضة لسوء الفهم والمعرفة".

كما أطلق على هذه المفردة خلال "حواره مع فرانسوا إوالد"⁵ صيغة جمع التفكيكات فهي أحد أسماء الممكنة في سياقات محددة تعني على نحو مجازي ما يحدث أو ما يمكن أن يحدث كما تعني تصدعا معينا يتكرر في الحقيقة... وحيثما يوجد شيء ما بدل لا شيء، يوحي كلامه أن التفكيك ليس مجرد مفهوم إجرائي تحليلي للمركزيات المتحكممة بالفكر الفلسفي أو الميتافيزيقي أو اللاهوتي بل هو حالة واقعية موجودة في الحياة، كما يقول دريدا: "إن عملية التفكيك لم تطل في المقام الأولي للمضامين الفلسفية والأطروحات بل طالت على الخصوص أطر الدالة والبنىات المؤسساتية والمعايير البيداغوجية..."⁶ وكل هذا يكشف وجه الآخر

¹ مجموعة مؤلفين، خطابات ما بعد الحداثة "استنفاذ وتعديل المشروعات الفلسفية"، دار الأمان الرباط، ط 1، 2013، ص 74/75.

² جاك دريدا، الكتابة والاختلاف... المصدر السابق، ص 166.

³ فريدة غنوة، فلسفة التفكيك جاك دريدا أمودجا، مجلة الحوار الفكري، ص 3، ع 5/ أوت 2003 م، ص 51/50. أنظر أيضا: مادان ساروب، دليل

تمهيدي الي ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة، تر: خميسي بوغرة، ط 1988، لندن، دط مترجمة، صادر عن دار البعث / قسنطينة، ص 48 وما بعدها.

⁴ اعترف البعض أن تفكيكية دريدا شبيهة ب"اللاهوت السليبي" من حيث البنيات النحوية والصياغية، فكما يكتب اللاهوت السليبي ان الله ليس هذا ولا ذاك

فيكتب دريدا ان تفكيك لا هذا ولا ذاك وأن لاختلاف ليس حضورا ولا غيابا... ويركز دريدا في توضيح أن اذا كان اللاهوت السليبي يسعى إلى ملمح لله

أعلى من الصفات والملامح التي أعطتها اللاهوتيات الإيجابية، فإن التفكيكية لا تسعى إلى إقامة ما وراء الميتافيزيقي للفلسفة الغربية ولا تعرف ما هو هذا ما وراء

أصلا وإنما تكتفي بتفكيك المتن القائم بما هو وما هو... جاك دريدا، الكتابة والاختلاف... المصدر السابق، ص 60.

⁵ فرانسوا إوالد، حوار جاك دريدا "يجب أن يسمو جنون ما على الفكر" مسارات الفلسفية، تر محمد ميلاد، دار الفكر دمشق، دط، ص 84/85.

⁶ مجموعة مؤلفين "جاك دريدا فيلسوف الهوامش...، المرجع السابق، ص 74/76

للتفكيك الذي وضحه دريدا كشف عن المفكك الواقعي باعتباره وجودا واقعيًا مفككا يوسع دائرة التفكيك فهو في منظوره "حركة تفكك نفسها إلى الابد، حركة يسكنها الاختلاف المرجئ فلا نص مفكك أو مفكك تماما"¹.

أما التفكيك من وجهة نظر المسيري فهو فصل العناصر الأساسية في بناء ما، بعضها عن بعض بهدف اكتشاف علاقته بين هذه العناصر ولبنات موجودة في البناء واكتشاف نقاط الضعف والقوة فإن التفكيك أداة تحليلية لكشف البنية الكاملة لأي نظام فكري فلسفي....، "الفلسفة التفكيكية (ما بعد الحداثة) فلسفة تهاجم فكرة الأساس نفسها لذا يطلق عليها (anti-foundationism) أي رفض المرجعية فهي تحاول اثبات أن النظم الفلسفية كافة تحتوي تجاوزها فلا تصبح هذه النظم طريقة لتنظيم الواقع بل تصير علامة على عدم وجود الحقيقة وتصبح الحقائق كلها نسبية ومثل هذا التفكيك ليس مجرد آلية للتحليل أو منهج بل هو رؤية فلسفية متكاملة تؤدي إلى تفويض الظاهرة الانسان وأي أساس للحقيقة...، فعملية التفكيك في جوهرها عملية تفكك الانسان إذ يرد للمادة وقوانينها فيلغي الحيز الإنساني تماما وبدل أن يكون الانسان كائنا مركبا متكاملًا فإنه يصبح الانسان -الإنساني- الطبيعي والوظيفي"²... إذ أن المنظومة الداروينية تعيد تركيب المجتمع على أساس الغاية الكل يتصارع فيها والبقاء للأقوى .

وهنا يضرب لنا المسيري مثالا واضحا تاريخيا متمثلا في الإبادة النازية للإنسان لا مجرد انتمائه الديني أو السياسي أو القومي أو الاقتصادي فقط... ويظهر هذا النموذج جليا في العصر ما بعد الحداثي حيث أصبح للإنسان لا قيمة ولا مرجعية ولا نظم، كما بين أيضا أهم العناصر التي رسخت هذه الصورة ضمن البعد ما بعد الحداثي ...

قيمة الانسان في فكر ما بعد الحداثة (من المركز إلى الهامش ومن الانسان الصلب إلى كائن سائل): أ) الإبادة³ وتفكيك الانسان كإمكانية كامنة في الحضارة الغربية :

ضرب لنا المسيري تجربة الإبادة النازية للعنصر اليهودي داخل أوروبا فهو مثال واضح على المخطط المنظم الشامل والمنهجي المحايد عن طريق استخدام الوسائل التكنولوجية وأساليب الإدارة الحديثة (أي أنها تجربة حديثة منفصلة عن القيمة، وهذه السمات مرتبطة بتزايد معدلات الترشيح والعلمنة الشاملة، وتحييد الواقع كله "الانسان والطبيعة وتحويله إلى مادة استعمالية ليست لها أي قداسة خاصة حتى يتمكن التحكم الامبريالي فيه واخضاعه للتجريب بلا تمييز بين الانسان والحيوان... وهو ما نسميه في مصطلحنا الحوسلة (أي تحويل كل شيء إلى وسيلة)، فتبني ألمانيا النازية خيار الإبادة كوسيلة لحل المشاكل التي واجهها المجتمع الألماني لم يكن لينبع من الاعتبارات الاقتصادية أو السياسية وحدها فهو أمر مرتبط تماما بإطار ثقافي وحضاري ونفسي أوسع...، "إن قيام

¹ محمد شوقي الزين، -تأويلات وتفكيكات- فصول في الفكر الغربي المعاصر، منشورات ضفاف بيروت، منشورات الاختلاف الجزائر، ط1، 2015، ص 201/205.

² د عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، مجلد الأول، ط1، 2002، دار شروق مصر، ص166

³ (الإبادة (هولوكوست): كلمة يونانية تعني حرق القران بالكامل وبالعبودية شواه وبالعبودية المحرقة وتستخدم الكلمة في العصر الحديث عادة للإشارة على إبادة اليهود وتصفيتهم جسديا على يد النازيين... عبد الوهاب المسيري، الموسوعة الوجيزة اليهود، اليهودية، الصهيونية، ط1، 2003، ط2، 2005، دار الشروق مصر، ص169.

الانسان الغربي بعملية الإبادة النازية وغيرها من عمليات الإبادة ليس لحضارته الغربية وحدثته النفعية المادية وإنما بسببها، فالأخلاق النفعية المادية تعفي الانسان من المسؤولية الأخلاقية فهي تستمد من المادة وقوانينها المتجاوزة للعواطف و الاخلاقيات الإنسانية ومن ثم تحرر الانسان الغربي من أية مفاهيم متجاوزة مثل مفهوم الإنسانية جمعاء، صالح الإنسانية كما تحرر من القيم المطلقة مثل المساواة، العدل... فجعل من نفسه الإنسان الغربي تجسيدا لقانون الطبيعة وحركة المادة ومن ثمة له الحق في حوسلة العالم وجميع شعوبه لخدمة مصالحه فتحوّلت بذلك (الهيومانية الغربية إلى الإمبريالية أداتية ثم إلى عنصرية...) وانقسمت إلى (سوبرمان إمبريالي متحكم في البشر والطبيعة) وإلى (سوبرمان أداتي ذاعن)، فالأول له إرادته وقوانينه والثاني لا قداسة له ولا حقوق¹.

(ب) العناصر التي ساعدت على تعميق هذا الاتجاه العام في الحضارة الغربية².

نذكر بعضا منها ما يلي:

- ظهور أيديولوجيات العلمانية الشاملة مثل: الاشتراكية العلمية و الفاشية و النازية ذات رؤية خلاصية تدور حول المطلق العلماني المادي الشامل، وتنطلق من الايمان بالعلم والتكنولوجيا والتنظيم.
- عدم إمكانية تصنيف البشر على أساس ديني وأيضا لم يكن هناك تصنيف على أساس مادي موضوعي طبيعي ولذلك طرح الأساس البيولوجي العرقي كأساس وحيد وأكد.. فتم مزج بين نظريتين شبه علمية ودارونية اجتماعية فكانت الثمرة عبارة عن نظرية غربية في التفاوت بين الأعراق ذات الطابع الدارويني .
- ظهور فكرة الفولك " الشعب العضوي " الذي تربطه رابطة عضوية وحتمية بأرضه وثقافته، وهنا تحل محل هذه الرابطة رابطة أخرى عرقية، فتحوّلت هذه الفكرة أساسا لتأكيد مفهوم التفاوت والطبقية بين الشعوب ...
- مع تزايد معدلات النسبية المعرفية فعالم المادة هو العالم الحركي لا ثبات فيه ولا حدود... فأصبح الانسان يشك في وجود أية حقيقة يقينية.
- انفصال الحقائق والعلم الطبيعي عن القيمة، والتجريب عن العقل بحيث أصبح التجريب منفصل عن أية غايات أخلاقية وإنسانية، وترجم هذا إلى ما يسمى بالعلم المحايد المتجرد تماما من القيمة ...
- تعاضل قوى الدولة المركزية وهيمنتها ومطلقيتها ومن ثم أصبح الدفاع عن مصلحة الدولة القومية مسألة لا تخضع لأية معيارية، والانحراف عن هذا الهدف المطلق خيانة نهائية للإعدام...
- ظهور مؤسسات بيروقراطية قوية تولت الكثير من الوظائف التي كانت تتولاها الاسرة في ماضي... أي تزايد ضمور الحس الخلقى والانكماش ما يسمى " رقعة الحياة الخاصة".
- تزايد معدلات الترشيح والتنميط وهيمنة النماذج الكمية والبيروقراطية على المجتمع وترشيح البيئة المادية والاجتماعية، وترشيح الانسان من داخله وخارجه.

¹ عبد الوهاب المسيري، الفلسفة المادية وتفكيك الانسان، دار الفكر المعاصر بيروت / دار الفكر دمشق، ط1 / 2007، ص ص 109/108.

² عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية....، المصدر السابق، ص ص 172/170.

- نجاح عمليات التجريد المتزايدة في المجتمع في جعل القيمة الأخلاقية شيئاً بعيداً جداً، ولا علاقة له بالفعل الإنساني "مثل صناعة الأسلحة الكيميائية القاتلة فإن الموظف المسؤول عن هذه الصناعة أو جزء منها يبذل جهده في أداء عمله دون أية أعباء أخلاقية وتظل نهاية أخلاقية (حرق البشر وابتداعهم) بعيدة جداً ويظل العامل الموظف المسؤول الفني مجرد تكنوقراطي وليس أخلاقياً...
- ومن مظاهر التجريد في المجتمع الحديث ممارسة العنف عن طريق المؤسسات المتخصصة ويتم ذلك داخل مكاتب أنيقة وبناية فائقة وأحياناً يتم العنف و التعذيب بأساليب علمية ..ومن ثمّة قتل الناس والتخلص من الجثث بطريقة نظيفة"¹.

خاتمة:

إنّ ملخص ما تم إنجازهُ في الحضارة الغربية الحديثة بعصرها (الحداثي وما بعد الحداثي خاصة) هو القضاء على الشخصية التقليدية ذات ولاء للمطلق الخلقى الثابت المتجاوز لعالم المادة والتاريخ... وحلت محلها الشخصية الحركية المتغيرة مع حركة المادة التي لا ولاء لها لأي قيم أو مطلقات... تعيش في عالم الواحدة المادية وهذه الشخصية يمكن أن تتصور في شكل فلسفة أو فكر أو اتجاه إمبريالي دارويني مليء باليقينية العلمية يوظف الكون (الطبيعة /الانسان) لصالحه ، كما يمكن لها أن تتبدى من خلال الإذعان الأداة لتصبح بذلك شخصية نمطية براغماتية ذات بعد واحدي ،

وإن ما تروجه الأجهزة الثقافية والاجتماعية وبما فيها الإعلام التكنولوجي و الإخباري للمجتمع الآن هي مجرد صورة لشخصية هزيلة لا تثق في ذاتها ولا رؤيتها ولا منظومتها ويتحدد ولاؤها إلا للمصلحة المادية المتغيرة فقط، وهذه الشخصية الأداة لا تفكر في الغايات وإنما في الوسائل والإجراءات فحسب ويمكن التعبير عن هذه الشخصية بمصطلح "شخصية ما بعد الحداثية" بكل دقة ووضوح...

¹ (عبد الوهاب المسيري، دراسات معرفية في الحداثة الغربية، مكتبة الشروق القاهرة، ط1، 2006، ص301.

قائمة مصادر والمراجع :

1. أحمد عبد الحليم عطية ، نيتشه ، جذور ما بعد الحداثة ، دار الفارابي /بيروت ، ط1، 2010.
2. بييتروكر ، الحداثة و ما بعد الحداثة ، تر: عبد الوهاب غلوب ، منشورات المجمع الثقافي ، ط1 ، 1995 .
3. بوسحابة رحمة ، فلسفة اللغة عند عبد الوهاب المسيري مدخلا إلى التوحيد الإسلامي ، مجلة المعيار ، ع40، ج1، ديسمبر 2015م.
4. جاك دريدا ، الكتابة والاختلاف ، ترجمة كاظم جهاد، دار توبقال/المغرب، ط2 ، 2000.
5. جاك دريدا ، في علم الكتابة ، ترجمة أنور مغيث ومنى طلبة ، المركز القومي للترجمة /القاهرة ، ط2 ، 2008.
6. حسيب شحادة ، مقال إلكتروني مادة " غوش إيمونيم" ، مجلة حوار المتمدن ، ع17، س 11/2006.
7. عبد الوهاب المسيري ، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة ، مجلد الأول ، ط1 ، 2002.
8. عبد الوهاب المسيري ، الفلسفة المادية وتفكيك الانسان ، دار الفكر المعاصر /بيروت ، ط1 ، 2007.
9. عبد الوهاب المسيري ، الموسوعة الوجيزة اليهود اليهودية الصهيونية ، دار الشروق / مصر ، ط1 ، 2003 ، ط2 ، 2005 .
10. عبد الوهاب المسيري ، دراسات معرفية في الحداثة الغربية ، مكتبة الشروق/القاهرة ، ط1 ، 2006.
11. عبد الوهاب المسيري ، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة ، المجلد الثاني ، دار الشروق /مصر، ط1، 2002.
12. عبد الوهاب المسيري وفتحي التركي ، الحداثة و ما بعد الحداثة ، دار الفكر /الجزائر، ط2، 2012.
13. عبد الوهاب المسيري، العلمانية ، الحداثة و العولمة ، دار الفكر /دمشق، ط1، 2009.
14. عبد الوهاب المسيري، اللغة والمجاز ، دار الشروق ، مصر ، ط1/2002، ط2/2006.
15. عبد الوهاب المسيري ، رحابة الإنسانية والايمان ، دار الشروق القاهرة /مصر، ط1/2012.
16. عبد الوهاب المسيري ، اليهودية و مابعد الحداثة رؤية معرفية ، مجلة إسلامية المعرفة ، س3 ، ع10، خريف 1997م .
17. عبد الله إدالكوس ، في نقد الخطاب الحداثي "عبد الوهاب المسيري و منهجية النماذج" ، المركز الثقافي العربي /المغرب ، ط1 / 2014.
18. فرانسوا إوالد ، حوار جاك دريدا "مسارات فلسفية" ترجمة: محمد ميلاد ، دار الفكر /دمشق.
19. فريدة غيوه ، فلسفة التفكيك جاك دريدا أنموذجا ، مجلة الحوار الفكري ، س3، ع5/أوت 2003.
20. مادان ساروب ، دليل تمهيدي إلى ما بعد البنيوية و مابعد الحداثة ، تر: خميسي بوغرة ، ط1/1988، لندن ، دط مترجمة ، صادر عن مطبعة البعث /قسنطينة .
21. محمد علي الكردي ، جاك دريدا وفلسفة التفكيك ، مجلة إبداع س18 فبراير / مارس 2000، ع312.
22. مجموعة مؤلفين ، خطابات ما بعد الحداثة"استنفاذ وتعديل المشروعات الفلسفية" ، دار الأمان ، ط1 ، 2013.
23. مجموعة مؤلفين، جاك دريدا ، فيلسوف الهوامش -تأملات في التفكيك والكتابة والسياسة- تحقيق: محمد بكاي، دار الأمان /الرباط ، ط1، 2017.
24. محمد شوقي الزين ، التأويلات والتفكيكات-فصول في الفكر الغربي المعاصر- ، منشورات ضفاف/بيروت ، ط1 ، 2015.
25. مصطفى اعراب ، فوكو الشذوذ الجنسي والاختراق ، مقال إلكتروني ، ...
26. مصطفى غالب ، في سبيل الموسوعة الفلسفية ، نيتشه ، دار مكتبة الهلال ، دط ، 1988.
27. ميخائيل بيرنت وهيلوز ليرتيه ، ماذا تبقى من جاك دريدا ؟، تر: محمد ميلاد ، مجلة الحياة الثقافية ، س42، ع281/ماي 2017.
28. ميشال فوكو ، الكلمات والاشياء ، ترجمة مطاع صفدي ويدر الدين عردوكي وآخرون ، مركز الانماء القومي /لبنان ، ط2، 2013.